الاتجاهات الحديثة
في الإسلام

للأستاذ

محمد بهجة الأثري

المطبعة السلفية - ومكتبتها

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

بينَ يدَى هذا السِّفر النفيس

الاتجاهُ الجماعىُّ فى الإسلام ، من صميم الإسلام ، بل هو الاسلام

إن الاسلام ـ فى ذاته ـ دينُ جماعة ، يقوم على تحرِّى السَّداد والمقاربة فى الحياة الدنيا ، وحياة الخلود

ولجماعات الاسلام قبلة واحدة يتمرَّنون على تحرِّى السداد بتحرِّيهم السدادَ فى الاتجاه إليها ، آناء الليل وأطرافَ النهار

والمجتمع الاسلامى رُسمت لاتجاهاته سُنن عُيِّنت ، ودُوِّنت ، وجُرِّب العمل بها مائتى سنة ، فكان نجاحُ التجربة معجزةً من معجزاتِ التاريخ الانسانى . وهذه السنن ـ فى جملتها وتفصيلها ـ تأخذ بأيدى أفراد المسلمين وجماعاتهم ودولتهم إلى البدء ـ فى كل شىء ـ من أول الخط المستقيم ، وتحرِّى الوصول إلى آخره على الجادَّة ، وهم يدعونَ الله فى كل يوم مرّات ومرّات : ﴿ اهدِنا الصراطَ المستقيم ﴾

كانوا ـ أفراداً وجماعات ، رجالا ونساء ـ يطلبون من ربهم ، فى داخل صلاتهم وخارجها ـ هذه الهداية إلى الصراط المستقيم ، بقلوبهم قبل ألسنتهم ، وكانوا على بيِّنه مما يطلبون ، ويتصوَّرون معانى هذه الألفاظ الثلاثة كلما تحرَّكت بها ألسنتهم ، واستمرَّ ذلك فى البطون الثلاثة الأولى للاسلام ، وهى المدَّة التى انتشرت فيها دعوة « الصراط المستقيم » بسرعة الصوت من مآذن التوحيد فى قارّات الأرض التى كانت معروفة لذلك العهد ، فسعدت شعوب الأرض بالانضمام إلى هذه الدعوة وأهلها من العرب الأولين ، واعتزَّ المشارقة والمغاربة بالولاء لهم ، والانتماء لقبائلهم ، فكان ذلك من أولئك وهؤلاء ولاء على الحق ، وتعاوناً مثالياً

فى سبيل الخير ، بل اندماجاً فى العروبة وسننها وتغنّياً بالعربية وبيانها ، لا يعرف التاريخ نظيراً له فى أمة أخرى

كانوا هم الناس ، يومَ كانوا قائمين بذلك ، ومتعاونين عليه ، ومقتنعين بأنّ الطريق المستقيم أقربُ الطرق ، وأقصرُها وأيسرها ، الوصول إلى الهدف العام ، ولتحقيق المصالح الجزئية

ولما اختلطوا بالأمم ، واختلطت بهم الأمم ، فأخذت عنهم وأخذوا عنها ، اندسّ فيهم أبالسة فشلوا فى تحطيم هذه الدعوة بالقوة ، فزعموا أنهم انضموا إليها ، وأنهم صاروا من حُماتها ، فاخترعوا لأهلها شِيَعاً ومذاهب متشعبة فى « بنيّات الطريق » . وأقنعوا من أقنعوه منهم بأن « التخريم » فيها أقرب — فى الوصول إلى الأهداف — من التزام الصراط المستقيم . وترتب على ذلك أن صار كثيرون من المسلمين يقولون لربهم فى صلاتهم « اهدنا الصراط المستقيم » وهم غير مقتنعين فى قلوبهم بأن « الصراط المستقيم » أسرعُ من « بنيات الطريق » فى إبلاغهم أهدافهم وتحقيق مصالحهم . ويومئذ تفرّق المسلمون شيعاً فى الأصول قبل الفروع ، وتوغلوا فى الطرق الصوفية وغير الصوفية ، وصار لمجموعهم لونٌ آخر غير اللون الذى كان للجماعة الأولى التى فتح الله لها الفتوح ، وطوّع لرسالتها قلوب الأمم ، وألسنتهم ، من زمن الصحابة إلى زمن التابعين والتابعين لهم بإحسان

هنالك استعجم الإسلام — كما يقول الشيخ محمد عبده — وتحوّل أهله من « أمة صدق » لأن الصدق من لوازم الصراط المستقيم ، إلى أمة ترى فلاح جماعاتها ، وبلوغ مقاصد أفرادها ، بالتفنن فى الأساليب الملتوية ، والدعوة للطرق المتشعبة ، والتعصب للشيع المتضاربة

إن للمسلمين قصة طويلة فى حيرتهم بين « الصراط المستقيم » و « بنيات الطريق » تتفاوت عواقبها وعقوباتها سعةً وضيقاً ، استمرت أكثر من ألف سنة

ودراسة هذه القصة ، ومراقبة تطوُّرهـا على أيدى الأبالسة الذين حوَّلوا المسلمين عن الطريق الأعظم إلى بنيات الطريق ، تقتضى كتابة تاريخ الإسلام وأهله من جديد ، ولا يقدر على ذلك إلا رجال أخلصوا النية ، ومحّضوا الحبَّ لدعوة الإسلام الأولى كما هى ، وعاشوا مع عصور الإسلام كأنهم كانوا من شهودها فى جميع بيئاتها . وعلماؤنا اليوم بين مشتغل بالعلوم الاسلامية فى نطاق ضيق ، ولم يتسع وقته لتنوير بصيرته بما يتقلب على الأمم من أسباب النهوض والانحطاط ، وما يؤثر عليها من الدعايات والدسائس التى تغير مجرى تاريخها . وبين متعلم بالمناهج الأجنبية التى أبعدته عن فهم ماضى أمته وأصل دعوتها ، ودقائق سننها التى كوفئت عليها من الله بالخلافة على الأرض ، ثم ما طرأ على ذلك من أسباب الضعف المدسوسة أو غير المدسوسة . فلم تحظَ هذه الدراسة بالألمعىّ الحصيف من هؤلاء أو أولئك . وإن بين هذين الصنفين صنفاً ثالثاً ارتفع عن مستوى الصنف الأول ، وآتاه الله بصيرة ومعرفة امتاز بهما على الصنف الثانى . وهؤلاء مع أنهم قلّة قليلة صرفتهم مشاغل الحياة عن الاضطلاع بهذا الواجب

ومن خيرة من أعرفهم فى العالم الإسلامىّ اليوم من هذا الصنف الثالث ، أخى العلامة الجليل السيد محمد بهجة الأثرى ، فانه مجموعة رجال فى رجل ، أنشأه الله تحت جناح علامة العراق ، وأحد أفذاذ المسلمين من الطبقة التى نشأنا فى ظلها ، وهو السيد محمود شكرى الألوسى ، علَمَ الأعلام الذين توارثوا حمل أمانات الملة بعلمهم ودينهم وأخلاقهم ، فكان السيدُ الأثرى أخصَّ أبناء السيد الألوسى ، ثم كان له من مواهبه الممتازة ما مكّنَ له فى علوم الشريعة ، وعلوم البيان ، والبصيرة فى سنن الاجتماع والعمران ، ومعرفة أقدار الأعلام من السلف فيما شادوا وبنوا ، ومراقبة أعداء الدعوة الإسلامية فيما دسوا من وراثهم وقوّضوا . وإنى أشكر الفرصة التى سنحت له فى استعراض هذا الموضوع بلمحة خاطفة هى وان كانت فى نفسها شيئاً عظيما ، غير أن إشرافها على أحداث بضعة عشر قرناً فى البناء والهدم

وأشباهها ، تكاد تكون مقدمة لدراسة قد تخرج فى عشرات المجلدات . وللسيد الأثرى من مشاغل الحياة ـ وأقربها قيامه على أوقاف المسلمين فى العراق قيام إحياء وتجديد ـ ما لا نطمع معه فى الوقت الحاضر بتكليفه هذا الجهد الأعظم ، لكنى أرجو أن يحاول التوسع فيما كتبه فى هذه الرسالة النفيسة ، فيخرج لنا بعدها دراسة أوسع ، تفتح الطريق له بعد ذلك ، أو لمن يوفقه الله للخير من شبابنا ، حتى يكون بين أيدى الجيل الآتى صورة أصيلة صحيحة لصراط الإسلام المستقيم ، ولبنيات الطريق التى تاه فيها المسلمون ، ليعودوا منها إلى سبيلهم الأول ، متوجهين باستقامة وسداد إلى الهدف الأعظم ، فتعود لهم خلافة الله على الأرض

دار الفتح
بجزيرة الروضة ، تجاه الفسطاط
بمصر

محب الدين الخطيب

الاتجاهات الحديثة
فى الاسلام

محاضرة دُعيَ الأستاذ الأثرى إلى إلقائها

فى صيف سنة ١٣٧٠ (١٩٥١)

فى مؤتمر الدراسات العربية ، بالجامعة الأمريكية ـ فى بيروت

الاتجاهات الحديثة فى الإسلام

يواجه الإسلام فى هذا العصر مجموعتين هائلتين من المشكلات العويصة المعقدة : المشكلاتِ القديمة التى تراكمت عليه فى عصوره الطوال ، وعملت على تغيير صورته وتحويل وجهته عن مجاريها العالمية إلى أن تأخر أهله وعاد هو غريباً بينهم غربَتَهُ بين غيرهم ؛ والمشكلات الجديدة التى أحدثها له ، ولا يزال يحدثها له ، هذا السلطان السياسى لدول أوربة فى ديارِه ومحاولاتُهُ الكثيرة المتنوعة فى مكافحته لإفساد يقَظَتِهِ ، وعزله وإقصائه عن واقع الحياة ، مخافةَ سلطانه واستعلائه

والبحث فى وجهاته فى هذا العصر يستلزم ، قبلَ تناوله ، رسمَ صورتين موجزتين لهاتين المجموعتين من مشكلاته ، ترتيباً للنتائج على المقدمات وربطاً للمسببات بالأسباب . وبدون الاستنارة بما ينبغى أن نضمنهما من حقائق ، لا نستطيع أن نقدر خطورة التطورات المختلفة التى ظهرت فى وجهات الإسلام اليوم

وإنى لمضطر أن أعترف ، قبلَ الخوض فى هذا الخضم المتلاطم عُبابُهُ ، بأنى قد ظلمت نفسى أبشع الظلم حين اطمأننت إلى الرضا بتناول هذا المبحث العظيم فى محاضرة ، فى ساعة عابرة من الزمان ، وهو يلف فى حناياه أحداث أزمنة طوال حافلة من قضايا التاريخ وغرائب الأطوار وألوان المنازع والغايات بما لن يستطيع الإحاطة بها واستخلاص وجهاتها إلا معهد منظم يتوفر على دراستها

ولكنّ نبل الغاية التى دعيت إلى المشاركة فيها ، وتقدير الثقة التى أولانيها علماء الجامعة الأجلاء القائمون بتدبير شؤون هذا المؤتمر الكريم ، قد رجحا عندى على هضم نفسى وإيثار إقحامها هذا المأزق

وزاد فى رجحانهما على ذلك فى ميزان التفضيل والإيثار ، هذه الصورة الجميلة التى ارتسمت فى خيالى من جمال النفوس ورجاحة العقول التى سأواجهها هنا ، ثم

ما قام فى نفسى بعد ذلك : من الطمع فى كرم شمائل السامعين و إدراكهم العميق ، وما يوحيه هذا وذاك اليهم من التقدير لطبيعة البحث وزمنه ، وما تقتضيه ضرورة الموقف من عذر المحاضر أو قبول عذره

* * *

ليس للاسلام مشكلات فى نفسه عند من يتدارسونه ، ويتعمقون عقيدته وتشريعه ونظامه فى قرآنه والصحيح الثابت من سنن رسوله ، وفى ترجمتهما إلى أعمال وأخلاق ومطامح عُلْيا كما ترى فى سير خلفائه وأبطاله وعلمائه ومفكريه وساسته وقادته فى عهوده الأولى خاصة

وإنما مشكلاته هى من خارج نفسه فى القديم وفى الحديث

فأما مشكلاته من خارج نفسه فى القديم ، فقد نشأت له من سلسلة الآفات والكوارث والحملات العنيفة التى تعرض لها فى تاريخه المديد ، وكان الباعث عليها عوامل شتى من العصبيات والأحقاد وقفت له بالمرصاد ونزلت إلى ميدانه تصارعه وتغالبه ، لتقضى عليه ، أو لتحد من نشاطه السياسى ونفوذه العالمى ، وتقف بموجاته حيث تستطيع أن تقف بها من شرق الأرض وغربها ، فى سلسلة طويلة من الصراع بينها وبينه تركت آثاراً سيئة فى حياة المسلمين العامة أدت نتائجها الخطيرة إلى انتقال السلطان من أيديهم إلى أيدى خصومهم وتغلب هؤلاء على أوطانهم كما هو معروف

وفى الحق أن ما ترتب على هذا الصراع السافر من نتائج سياسية وعقلية وروحية واجتماعية ، بعد عصور طويلة من نشأة الإسلام ، ما كان ليكون بجملته وتفصيله على هذا النحو لو سلم الإسلام من الآفات التى تناولته ونفذت اليه بوسائلها الكثيرة كما تنفذ الأمراض الخبيثة إلى الجسم الحى لتبيده

نفذت هذه الآفات إلى الإسلام بوسيلتين منفردتين فى الظاهر متحالفتين فى

الباطن ، وهما وسيلة السياسة ووسيلة الدين ، وطالما ظهرت الحركات السياسية متبرقعة ببراقع الدين أو المذهب ، لتخفي وجهها ووجهتها وتنفذ إلى ما تشاء من مآربها تحت ستار اسمه وانتحال عقيدته

وبدأت الحركات الأولى بمحاولة قلب الدولة الإسلامية ، وهي فتية غضة لم يستتو بعدُ عودُها ، ولم تنشب جذورها ، فشرعت بالائتمار بالخلفاء الراشدين ، وظهر ذلك أولَ ما ظهر في المؤامرة اليهودية المجوسية التي نفذها « بابا شجاع ! ! » أي أبو لؤلؤة الفارسي ، فقتل عمر بن الخطاب رضوان الله عليه قائماً يصلّي في المحراب

فلما أخفقت في تحقيق غايتها بهذه الوسيلة ، عمدت إلى إثارة الفتن الداخلية وتمزيق الوحدة الإسلامية بانشاء الأحزاب السرية والعلنية ، والتحزب للأسر الكبيرة في الإسلام ، ونشر فكرة الحق الإلهي في الدولة ، وإبطال الشورى . فنشب الصراع على الخلافة ، واستتبع ذلك انتقال الحكم من يد إلى يد بعوامل العصبيات القَبِيليّة والمذهبية . وبذلك دخل أول الوهن على الوحدة الإسلامية ، وما زال يزداد والوحدة تتجزأ حتى انقسمت المملكة الإسلامية بين ملوك الطوائف ، وظهرت حركات الملاحدة والقرامطة والباطنية في أحشاء البلاد ، وهم يعيثون في الإسلام وفي الدولة ويهزُّون المملكة هزاً بالغيلة والفتك بالخلفاء والملوك والعلماء ، إلى أن اكتسح المغول الشرق الإسلامي

وكان أخطر ما قامت به هذه الحركات في توجيهاتها الخفية ، هو العمل على تحويل توجيهات الإسلام الروحية وتشريعاته ونزعاته عن مجاريها العالية تحويلا تنتهي به إلى إضعافه وإماتة حيويته ، ليمكّنَ لها من إحياء عصبياتها القديمة ، وإعادة سلطانها الذاهب الذي تحنّ إليه ، وشفاء صدرها من الإسلام

فعمدت ـ أولَ ما عمدت ـ إلى الأصل الذي عليه يقوم بناء الإسلام ، وبه يتحقق وجوده ، ومنه تتفرع وجهاته في العقيدة والشريعة والدولة والحياة . وهو

التوحيد الخالص . فارادته أن يكون شركا خاصاً من نوع شركها القديم ، ووثنية حقيرة من جنس وثنياتها الأولى

وتفرع من سعيها فى إفساد هذا الأصل الأعظم فى الإسلام ، ونجاحها فيه نجاحاً كبيراً على مر الأيام ، سعيُها فى تشويه حقائق معظم الأمور التى تترتب عليه ، وتغيير صورها بتحريف وجهاتها والابتعاد بمقاصدها ونزعاتها عن مفاهيمها الحقيقية

وكان من وسائلها الكبرى إلى ذلك ، الوضعُ ، وتمحّل التأويل لنصوص الكتاب والسنة ، وجعلُ ظواهرَ وبواطنَ للقرآن وأحكامه ، وإضافة البدع والمحادثات إلى الدين والعبادات ، وإشباع الأذهان بالخرافات والقصص والأساطير الاسرائيلية ، والترويج لضروب من الآراء الباطلة والنوازع الضارة ، ولا سيما نوازع التفرق التى لم يُبعث الإسلام إلا لاستئصال مناشئها ، وإنقاذ العالم الإنسانى من شرورها وآثامها ، بجعل الدين كله لله وحده لا شريك له فى وحدانيته ولا ندّ له ولا منازع فى سلطانه ، ولا سبيل لأحد من خلقه على خلقه سواه

وما زالت تدأب فى ذلك ونحوه حتى استطاعت أن تُحيل الإسلام ، على تراخى الأيام ، اسماً على غير مسماه ، وحملت جماهير المسلمين على أن يألفوا رويداً رويداً صورةً له يتنكّر لها الإسلام الصحيحُ أشدّ التنكر ، ومفاهيمَ له فاسدةً تخالفها ظواهر أصوله ونصوصِه أشدّ المخالفة ، حتى عاد كثير مما كان معروفاً عند أوائلهم منكراً لديهم ، وكثير مما كان منكراً عند أولئك معروفاً عند هؤلاء

ولاغرابة فى أن ينتهى الأمر بالإسلام إلى هذه الغاية ، بعد أن نعلم نتائج حركات هؤلاء فى الداخل من جهة ، وآثار صراع الإسلام وراء حدود بلاده وفى قلبها من جهة أخرى ، فى إضعاف الأمة الاسلامية ، وفشوّ الآفات الاجتماعية بين المسلمين

ومن أخطر هذه النتائج :

انتقالُ السلطان ، بذهاب الأجيال الأولى من الصرحاء الخُمس المتشبّعين بروح الرسالة ومطامحها العُليا ، إلى أيدى الموالى والهجُنَاء من رواسب الأمم الذين طواهم الإسلام فى عبابه ، وانتحلوه انتحالا ظاهرياً ، وبقيت تعتمل فى صدورهم الإحنةُ عليه والبغضاء له

ومنها : فشوّ الجهل ، والأمية ، والاستعجام

ومنها : انتهاء أزمّة التوجيه الروحى والفكرى ، بتأثير هذين العاملين ، إلى المتصوفة وأشباه الفقهاء . وقد نشأ هؤلاء فى ظلال هذا الفساد ، وورثوا تلك الصورة المشوّهة للإسلام كما صاغها أعداؤه ، ولم يكن لهم من الذكاء وحرية الرأى وسعة العلم ما يعينهم على التحقيق والتمحيص ، فاقتنعوا بصدق الصورة التى نُقلت لهم عن الإسلام ، وألِفُوها منذ نعومة أظفارهم ، وشبّوا عليها وشابوا ، وزادوها فساداً بجمودهم وفساد تخيلاتهم وابتعادهم عن مصادر الإسلام الأولى ورجوعهم فى كسب معارفهم الدينية إلى كتبٍ من كتب ذلك الرعيل ، وهى كتب مذهبية بحتة أملاها التعصب الخالص ، فلم تكن فى الدين بذات روح ، ولا فى الدنيا بذات طموح ، وشُغِلَ الناس بالجدل المذهبى ومقالات أهل النحل والملل ، ومذاهب الروح وفلسفة الإشراق ، ومسائل الاتّحاد والحلول ووحدة الوجود ، فحجب ذلك عنهم دينهم ، ولم ينفعهم فى دنياهم شيئاً . وأثرت الطرق الصوفية فى الأفكار تأثيراً سيئاً ، وكان من هذه الطرق ما يصطنع نظام الدرجات المتصاعدة فى المذاهب السرية ، ومنها ما يصطنع الدعوة إلى الزهد والانقطاع بزعمهم الى الله ، ويُرغّب الجماهير فى الفقر والمسكنة ، ويستكثر ، بمعاونة الطبقات الحاكمة ، من الرُّبُط والتكايا والزوايا ، فيقصدها المتبطلون من كل صوب ، ليسقطوا على الفتات من صدقات الحاكمين الأغنياء ، ثم ليجأروا بالدعاء لهم أن يطيل أعمارَهم باسط الأرض ورافعُ السماء !

وقد كان سلطان طوائف المتصوفين ، فى العهود الأخيرة خاصة ، أقوى سلطان على عقول الجماهير ، وكان مسلكهم الوضيع يجرى على هوى الطبقات الحاكمة فى حجب الأبصار عن تَرَفهم وباطلهم وتعسّفهم ، فوطّد المظالم وللاستبداد ، ووقف فى وجه الإصلاح والمصلحين ، كما حلل طاقة الأمة ، وقعد بقواها عن السعى ، وبعقولها عن الابتكار ، وبثرائها عن الاستثمار . ولسنا نود أن نتحدث عن آثارها فى تشويه الأخلاق ، وإفساد المعاملات ، وتزوير الدين ، وإحالة العبادة والتقوى فيه إلى رقص ومُكاء وتصدية ورياء ومظاهر مزورة ، خشية أن لا ننتهى منها ، ونحن نريد الاقتضاب

وبهذا الذى ذكرنا وغيره مما لم نذكر ، بلغ المسلمون غاية التأخر فى الدين والدنيا ، وعرضوا أنفسهم للعقوبة التى يكتبها الله على المنحرفين عن هدايته ، إذ انقطع سندهم بالروح الواعى الذى كان يثير أسلافهم إلى العظائم ، كما انقطع سندهم بالعلوم العملية التى تسخر للأمة قوىٰ الطبيعة ، وتسخرها لمصلحتها وبقائها وخلودها ، فكان انقطاع سندهم بهذين الأمرين وانصرافهم إلى ما وصفناه من الشؤون مَدْعاةَ ضعفهم المعنوى والمادى ، وكان ضعفهم المعنوى والمادى علّة سقوطهم

على أننا ، وقد انتهينا فى رسم هذه الصورة للحياة الإسلامية المتأخرة إلى هذه الغاية ، نرى من الحق علينا ، بل من مستلزمات بحثنا فى وجهات الإسلام الحديثة ، أن نكشف عن حقيقتين تاريخيتين لا خفاء بهما على من يتقصّون التاريخ وينفضون أحداثه ، نعتقد أنهما أمسكتا العالم الإسلامى أن ينهار ، والإسلامَ أن يزول ، من أية صدمة من الصدمات التى قرعته . فإن لم يكن من الانتفاضات الداخلية ومفاسدها ، وهى من أعظم ما مُنى به نظام من أنظمة العالم من أعدائه وجهلة أهله معاً ، فمن غادة المُغول التى أبادت الحرث والنسل وأحرقت اليابس والأخضر ، وإن لم يكن لا من هذه ولا من تلك ، فمن الغارات الصليبية التى انثالت بها جيوش أوربة كلها بقضّها وقضيضها عليه موجةً فى إثر موجة مدة قرنين

كاملين ، وإن لم يكن لا من تينك ولا من هذه ، فمن الكارثة الأوربية التى بدأت طلائعها قبل قرنين إلى أن أطبقت عليه فى الحرب العالمية الأولى وما زالت ممسكة بخناقه

وهاتان الحقيقتان إنما ترجعان — فى واقع الأمر — إلى بقاء القرآن نفسه بنجوة من كل هذه التيارات سليما لم يمسسه سوء ، وعملِه فى نفوس المسلمين بما تثيره تلاوته من شعور سليم يحملهم على تصحيح المواقف التى كانت تدفعهم إليها الدسائس والحركات الهدامة دفعاً ، على اختلاف حظوظهم من تلاوته وفهمهم لما يتلون

ونحرص على ذكرها لما يترتب عليها من أثر فى تبيان وجهات الإسلام الحديثة والأسلوب الذى تسير عليه

أما الحقيقة الأولى ، فتتجلى فى المظهر العقلى العام للمجتمع الاسلامى فى تلك العصور على ما أصابه من فساد . وقد كان دوام هذا المظهر سليما إلى حدٍّ ما امتداداً لوراثة التوجيه القرآنى للمجتمع الأول وللسماحة التى اتصف بها وأثرت أثرها فى نفسية المسلمين وعقليتهم ، فكانت فيهم غريزة أو كالغريزة الموروثة إذا تعمدها التوجيه الفاسد بموبقاته كان فيها القدرة على الاعتصام بأصالة طبيعتها

ولعل وجه هذا المظهر يبدو واضحاً بالمقابلة بينه وبين المظهر العقلى العام لأوربة فى عهد الرينسانس ، عهد الانبعاث والحياة ، فقد تبيح لنا هذه المقابلة أن نعدّ ما بلغه المجتمع الإسلامى من الجمود العقلى فى أشد عصور تأخره طوراً من أطوار الإصلاح الذى بدأته أوربة يومئذٍ . فلم يشهد هذا المجتمع ما شهدته أوربة : من تحجر العقل ، وشلل الفكر ، وجدب الروح ، وقسوة الضمير فى مصادرة الحريات ، والضراوة فى إبادة الكتب ومحاربة العلم والعلماء ، ونزال أقسى العقوبات وأقصاها بالمفكرين من أجل أفكار تبدو لنا عادية ، كانوا يعلنونها فى سبيل الإصلاح والتجديد . ويذكر التاريخ أن عدد الذين عوقبوا فى أوربة بلغ ثلاثمائة ألف ،

أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفـــاً أحياء ، كان منهم العالم الطبيعى « برونو Brunos » ، وقد نُقِمت منه آراء ، أشدها قوله بتعدد العوالم ، فحكم عليه بالقتل ، وأحرق ميتاً . وعوقب العالم الطبيعى الشهير « غاليليو » بالقتل ، لأنه اعتقد بدوران الأرض حول الشمس . وحُبس « دى رومنس » فى روما حتى مات ، ثم حوكمت جثته وكتبه ، فحكم عليها بالحرق ، وأُلقيت فى النار ، لأنه قال إن « قوسَ قُزَحَ » ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد ، بل هى من انعكاس ضوء الشمس فى نقط المـاء . وأصاب « جيوفت » فى جنيف ، و « فايتى » فى تولوز ما أصاب هؤلاء ، وحُرقا شيًّا على النار ، لآراء لا تستوجب حتى التعزير ، إن لم نقل تستوجب الاحترام والتقدير

ولا جدال فى أن تاريخ الاسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيعَ لحرية الفكر والعلم الذى عرفته أوربة . والأحوال النادرة التى عوقب فيها رجال على آرائهم تعد شاذة جداً فى المجتمع الإسلامى ، وكانت إلى ذلك تتلبس بها بواعث سياسية خطيرة تعتمد قلب الدولة والقضاء عليها ، كالذى كان من قتل « الحسين بن منصور الحلاج » ، وهو رجل مجوسى الأصل من أهل بيضاء فارس ، اشتغل بالمخارق والحيل ، وادعى العلم بالأسرار ، ثم تناهى إلى ادعاء النبوة ثم الربوبية ، واستغوى غلمان قصر « المقتدر بالله العباسى » لينفذ بهم إلى تحقيق غايته ، فأدى ذلك إلى قتله . وذكر إمام الحرمين فى كتابه « الشامل » أنه كان بين « الحلاج » وبين « الجنابى » رئيس القرامطة اتفاق سرّىّ على قلب الدولة ، وأن ذلك هو السبب الحقيقى فى قتل « الحلاج » . وهذا ، كما يُرى ، باب آخر يتعلق بحماية الأمن وحفظ النظام وسلامة الدولة ، وهو غير ما نحن فيه

ونكتفى بهذه الأمثلة اليسيرة من ذلك ، ونحسبها كافية فى الموازنة الفاصلة لإظهار صورة تأخر المسلمين العقلى على حقيقتها حين نضعها إلى جانب هذه الصورة

من تأخر الأوربيين على سبيل القياس والتمثيل بما يجارى الواقع ولا يجانف مذاهب الصدق

وأما الحقيقة الأخرى ، فهى اتصال تاريخ الإصلاح والتجديد فى الإسلام ، فى مختلف عصوره . فمن ملوك من طراز الفاتحين الأوائل فى دينهم وتقواهم وفى سيرتهم وأخلاقهم ، يظهرون فى الفترات ، ويسعون فى إعادة شباب الإسلام وإقامة حكومة إسلامية على منهاج الخلافة الراشدة . . إلى علماء مصلحين رافعين لمشاعل التجديد ، ثائرين على البدع والمحدثات التى غيرت وجه الإسلام ووجهته ، ينعون على المسلمين انحرافهم عن سنن القرآن ، ويدعونهم إلى الرجوع إلى الإسلام الصحيح فى صورته الحقيقية قبل أن تعدو عليه الشعوبية ومسلمة اليهود وأضرابهم بالإفساد والتشويه .

وبذلك كانت مشاعل الإصلاح فى المجتمع الاسلامى متسلسلة يتقد بعضها من بعض . وكانت أضواؤها تختلف سطوعاً وخفوتاً على قدر طاقة مشعليها ، ومرجعُها جميعاً فى أخذ أقباسها إلى أصل الدين ، وهو القرآن وكونه حياً محفوظاً من التحريف والتبديل ، عالياً منارُهُ ، متألقةً أشعته . وما زال الكتاب والسنة الصحيحة يبعثان فى نفوس الأذكياء المثقفين الثورة على الوثنية والبدع والمحدثات ، والثورة على ترف المترفين واستبداد الملوك ، والثورة على الجمود والتقليد ومجانفة الفطرة وسنن الطبيعة التى لا تبديل لخلقها كما سنرى أمثلته فى التجديد الحديث

ولقد كان لاستمرار هاتين الحقيقتين فى العالم الإسلامى أعظم الأثر فى بقائه متماسكا وفى حفظ الإسلام من الزوال

تلك هى الصورة المصغرة للعالم الإسلامى حين استيقظ الغرب ، وطفق يبحث عن مجالات غنية ، ليبسط عليها سلطانه ونفوذه ، ويغذى حضارته المادية بمعادنها وخاماتها وبترولها ، ويفتح فيها لاقتصادياته وتجاراته أسواقاً تستهلك منتجاته وتنمى ثروته

وأما مشكلات الإسلام الحديثة ، فهى ناشئة من الاحتلال الأوربى ، وهى تكمن وراء طبيعة الاحتلال ووسائله فى تثبيت أقدامه فى دياره ، ومنها تنطلق أسبابها وبواعثها ، ثم تأخذ صبغاتها المختلفة ، وتتكاثر وتتعقد لتستحيل إلى أمراض متوطنة تنهك المجتمع وتحل طاقته وتبطل مقاومته

وقد دهم الغرب بلاد الإسلام ، وحمل معه إليها مظاهرَ حضارته ومذاهبه فى الدين والاجتماع ، ومنازعه فى السياسة والاقتصاد ، وأذواقه فى الفنون والآداب ونوازع الحياة ، فأخذ الناس من كل ذلك بحظوظ تختلف باختلاف حظوظهم من الاتصال بها أو القرب منها والبعد عنها ، ففتن بها أناس يسرفون فى حسن الظن والتقليد ، وعدّوها خيراً كلها . فاندفعوا يقتبسون من ظواهرها ما يستطيعون اقتباسه ، ومن منازعها ما يسهل أخذه ، لا يَعْدُونه ، أو قلّما يعدونه إلى ما وراء ذلك من استبطان الدخائل وتعمق الأصول والغايات . وأنكرها أناس ، فازورّوا عنها ، وعدّوها شراً كلها ، فلم يأخذوا منها شيئـــاً ، وحاربوا منازعها ، لأنهم يزدرونها ويمقتونها مقتاً ظاهراً . ووقف آخرون موقفاً وسطاً ، لا يندفعون مع أولئك فى التقليد ، ولا يشايعون هؤلاء على الازورار ، وإنما يلاحظون الظواهر ويتعمقون البواطن ويرصدون الوجهات والغايات ، ثم يعرضون ذلك كله على العقل والمثل القومية والدينية فيأخذون منه أشياء ويرفضون أشياء ، ثم يلائمون بين ما يأخذون وبين مزاج الفكر الإسلامى وأصوله ، ويضفون عليه من ذلك روحاً جديداً يجعله مِلْكا خالصاً للحياة الإسلامية . وبهذا زاد هؤلاء فى ثروة الفكر من ناحية ، وأضعفوا من تقليد الفريق الأول ، كما خففوا من حدة الفريق الآخر من ناحية ثانية ، بل صنعوا أكبر من ذلك فأبطلوا مع الأيام كثيراً أو قليلا من آثار نوازع الاحتلال فى استخدام وسائله المادية والمعنوية فى تغليب هذه الحضارة ومرافقها على الحضارة العربية الإسلامية للاستعلاء بها على الإسلام وحضارته

ولكن الاحتلال لا يقف ولا يكف عن المضى فى سبيله إلى غايته ،

والحضارة عنده ليست غير وسيلة من وسائل تثبيت أقدامه فى الديار المحتلة إلى آخر الزمان !

وقد كان هدفه ـ ولا يزال ـ إذابة شخصية المحتلين فى هذه الحضارة ، وتغيير ما بأنفسهم من روح الاعتزاز بعقيدتهم والتعلق بلغتهم وبتاريخهم والإكبار لحضارتهم تغييراً يسلمهم إلى الخضوع لإرادته ، والاستسلام لسلطانه ، والفناء فى مذاهبه ، فهو يعلم من سلطان كل أولئك على نفوسهم الشىء الكثير ، ويعلم أنه لن يستطيع أن يؤدى عمله ، وينتهى إلى غايته ، وينجح نجاحاً تاماً ، إلا إذا مهد له السبيل بتوجيهات خاصة ومنازع جديدة تقطع صلة المسلمين بدينهم وتضعف توازعهم إلى الاستقلال عنه والتمرد عليه

فسعى إلى ذلك ـ أولَ ما سعى ـ بالتبشير ، وكان يظنه سلاحاً نافذاً ، فلم يثمر له أية ثمرة إيجابية ، وذهبت مساعيه فى نشره أدراج الرياح ، ووجد أن المسلمين غير محتاجين إلى من يهديهم إلى « عيسى » عليه السلام ، فهم يؤمنون « بعيسى » و « مريم » وبجميع التعاليم المعقولة فى المسيحية ، ويبرئونه وأمه من كل شىء كما يبرئه المسيحيون

وحينئذ فكر فى نشر التعطيل بين المسلمين ليكون الوسيلة إلى قطع صلتهم بالإسلام ، فأسس لذلك مدارس خاصة ، كالمدرسة العظمى التى أسست فى الهند ، لنشر تعاليمه ، وبث مبادئها فى نفوس النشء المسلم . فضلّ كثير منهم ، وأشربوا روح الإلحاد فى قلوبهم ، ولا سيما أولاد الأمراء الذين كان معظم طلاب تلك المدرسة منهم . وهال ذلك السيد « جمال الدين الأفغانى » فألف رسالته المشهورة « الرد على الدّهريين » ، وانتشرت الرسالة فى طول البلاد وعرضها ، فأخرج كثير من أمرائها أولادهم من تلك المدرسة ، ورجع آخرون عما كان خامر نفوسهم من التعطيل والإلحاد

وعلل السيد « الأفغانى » مقصد المحتلين من ذلك بأنهم رأوه أقرب وسيلة إلى أغراضهم ، وتأييد سلطانهم فى الهند ، وقال : « إنهم وجدوا أن الديانة الإسلامية تطلب من أتباعها أن يكونوا أصحاب الشوكة والسلطان فى أوطانهم ، ولاحظوا أن ذلك هو طبيعة الإسلام التى لا يمكن انسلاخه عنها ، ولا انتزاعها من فطرة أبنائه ، ففكروا فى أمر يضعف أثر هذه العقيدة فى نفوسهم ، فرأوا أن أقرب وسيلة إلى نيل مرادهم هو نشر التعطيل بين المسلمين »

ويشير مستر « جب » إلى شبكة المدارس الأجنبية التى انتشرت ، من منتصف القرن التاسع عشر ، فى معظم البلاد الإسلامية ، وتولت الدول الأوربية تأسيسها فيها ؛ وإلى أثرها فى صياغة أخلاق التلاميذ وتكوين ذوقهم وإعدادهم للتأثر بالمؤثرات الأوربية ، فيقول فى بعض كلامه :

« فى أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر ، نُفذت هذه الخطة إلى أبعد من ذلك بإنماء التعليم العلمانى بإشراف الإنجليز فى مصر والهند . ولعل هناك نصيباً من الحق فى التهمة التى تُرمَى بها هذه المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ ، وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية التى وليت ذلك فى البلاد الإسلامية أيدت هذه التهمة . ولكن الذى فعلته بلا ريب أنها ربّت فى التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة إلى حد ما فى أوطانهم الأصلية . وبإضعافها من هذه الوجوه لسلطان النزعة الاسلامية القديمة على التلاميذ ، أدخلت فى بناء المجتمع الإسلامى أداةً هادِمة ، وقطعت بعض الأواصر التى كانت تحفظ تماسكه »

وفى هذه الإشارات الموجزة إلى نتائج وجهة الاحتلال وأثر مساعيه فى تغيير العقائد والأنظمة الاجتماعية ، تظهر الأصول التى تنشأ منها كليات مشكلات الإسلام فى هذا العصر ، وتنحو هى وجزئياتها الكثيرة فى النواحى النظرية